٣ - دعابة الجاحظ

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

ولكن ليس كل هذا ما فقدناه من أحاديث الجاحظ وآثاره فى المرح والدعابة فأن له كثيراً من الطرائف والملح التى ضاعت بين سمع الأرض وبصرها، وطوتها الاحداث بين أجواء العصور الخالية، فلم يبق منها إلا معالم كأنها معالم الطود قد استبد به الزمن ومحقته العواصف القاسية. وها نحن أولاء نكتب عن دعابة الجاحظ وليس بين أيدينا من مصادر البحث إلا وشل من معين، فكل ما هنالك جملة من النوادر المبعثرة فى بطون الكتب يتلمسها الباحث بشق النفس، مع أن الرجل قد جرد فى ذلك كتبا ورسائل تدل أسماؤها على أنها قد ضمنت ألواناً من الدعابة والمزاح، وأترعت بفنون من النوادر والمضاحيك. وتلك الكتب على ما ذكر الجاحظ نفسه وعلى ما قال بعض الباحثين: هى كتاب الملح والطرف، وما حر من النوادر وبرد، وماعاد بارده حاراً لفرط برده حتى أمتع بأكثر من امتاع الحار(١) ثم كتاب المزاح والجد، وكتاب خصومة الحول والعور. وكتاب المضاحيك، ورسالة فى فرط جهل الكندى يعقوب بن إسحاق(٢) أول من اشتهر فى الاسلام بالعلوم الفلسفية وما إليها. والظاهر أن الجاحظ قد ساق هذه الرسالة فى التندر على هذا الرجل والتهكم به كمثل صنيعه مع أحمد بن عبد الوهاب فى الترييع والتدوير... ثم أين نحن بعد هذا كله مما كتبه الجاحظ إلى إخوانه وخلطائه «من مزح وجد، ومن افصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن ملح تضحك، ومواعظ تبكى (٣)...»، بل أين نحن مما أفرغه فى جميع كتبه ومؤلفاته من النوادر والمعابث، وقد كانت تلك طريقته وذلك صنيعه، وهو الذى يقول فى وصف الكتاب: «ومن لك بوعاء ملىء علماً، وظرف حشى ظرفا، وإناء شحن مزاحاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وان شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت أهلتك طرائفه.. (٤)».

فيالها من ثروة كبيرة تلك التى وفرها الجاحظ فى باب المزاح والدعابة. ولو أن الزمن قد أبقى لنا على كل هذه الثروة لفزنا بكثير، ولوقفنا باليقين على اتجاهات الرجل وما كان له من قدم فى مسالك هذا الفن وضروبه؛ أما وقد خسرنا هذه الصفقة، فليس إلا أن نسير فى البحث على قدر تلك الآثارة التى بقيت لنا من أماليح الجاحظ على الرغم من مغالبة المحن وقسوة الأحداث، وان فيها ما قد يجدى فى البحث، ويغنى فى الوقوف على مقاصد الرجل من دعاباته. ولعل أهم تلك المقاصد وأجلها انما هو التهكم؛ ولعل الجاحظ لم يبرع فى ناحية من مناحى الدعابة كما برع فى تلك الناحية وتفنن، فهو عجيب فى تهكمه؛ تنظر إلى إحدى غمائزه فلا تدرى إلى أى جو قد تنقلك الرجل، ولا ما ثم من أشتات المعانى التى قد أوردها على ذهنك وأثارها فى نفسك، فهو يحاور ويداور. ويصطنع أسلوبا ملتوياً له ظهر وله بطن، وفيه لين وفيه قسوة، وبه طرافة وبه جفوة؛ وقد يقف من القارى موقف المتسائل، ويسير معه سير المتجاهل، فكأنه يريد أن يتهكم أيضاً بالقارى على غفلة. وليس هذا كله إلا علامة القدرة ودليل الطبع؛ وإنما كان الجاحظ موهوباً فى تهكمه، ساخراً بطبعه؛ ومن ثم لم يقف فى تهكمه عند حد الدعابة والعبث، بل لقد كان يتناول ذلك فى كثير من نواحى فنه، فهو أداته فى الهجاء والتقريع، والنقد والتعريض، والجدل والمناظرة، وما إلى ذلك من مواضع الأخذ والرد والنظر والبحث. ألا تراه وهو ينتقد الخليل بن احمد إذ صنف فى علم لم تجتمع له أداته، ولم يتوفر له شرطه فيقول: «والخليل بن احمد من أجل إحسانه فى النحو والعروض وضع كتابا فى الايقاع وتراكيب الأصوات وهو لم يعالج وتراً قط، ولا مس يده قضيباً، ولا كثرت مشاهدته للمغنين. وكتب كتاباً فى الكلام ولو جهد كل بليغ فى الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك. ولو أن ممروراً استفرغ قوى مرته فى الهذيان لم يتهيأ له مثل ذلك، وما يتأتى مثل ذلك إلا بخذلان من الله الذى لا يقى منه شىء. ولولا أن أسخف الكتاب، وأضجن الرسالة، وأخرجها من حد الجد إلى حد الهزل، لحكيت صدر كتابه فى التوحيد، وبعض ما وضعه فى العدل!(١)».

فهذا أسلوب من النقد الساخر الذى كان يصطنعه الجاحظ وإنه لأسلوب شديد الوطأة، وإنه بالهجاء لأشبه. فهو كما ترى يطلب «أولا» مرتبة لتصنيف الخليل هى أحط مراتب الضعف والتهافت، فيضعه دون الخطأ «يتعمده» كل «بليغ» فى الأرض «جهده» ولكن هذه المرتبة الدون لا تقنع الجاحظ، فيعود «ثانيا» فيجعله عدلا «لهذيان» الممرور قد «استفرغ» كل مرته فى الهذيان؛ وهذه أيضا لا تقنع الجاحظ ولا تشبع نفسه، فنجده «أخيراً» يحكم على صنيع الرجل بأنه ضرب من الضعف لا يتأتى لطبيعة بشرية إلا «بخذلان» من الله، ثم زاد فجعله سخفاً وهجانة لو حكاه لخرج بالقارى من حد الجد إلى باب الهزل. وهذه مداورة من الجاحظ فيها مافيها

(١) الحيوان ج ١ (٢) الفرق بين الفرق للبغدادي
(٣) الحيوان ج ١ (٤) الحيوان ج ١

(١) ادب الجاحظ للسندوبى

من التهكم المر ، والتقريع اللاذع ، والتعريض الذى لايطاق استهزاء وسخرية !!

ولقد كان هذا التهكم هو سلاح الجاحظ أيضا وعدته فى تقريع الحشويين وأهل التزيد ، والذين يفترون الأخبار الغثة ، ويلفقون الأحاديث الكاذبة ، ويروجون القصص التافهة ، ثم هم يحشرون ذلك فى الدين ، ويلصقونه بالأخبار النبوية الشريفة ، ويسندونه فى الرواية إلى الأصحاب الأخيار ، والرواة الثقات ، كمثل ما زعموه عن كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وتنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه فى رأسه فأنتنت ريحه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، ودخول إبليس إلى سفينة نوح فى جوف الحمار ، وما أسندوه إلى ابن عباس من أن الحجر الأسود قد نزل من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج فسودته خطايا أهل الشرك ، ثم ما تحدثوا به عن السيدة عائشة بشأن الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع فأكلتها داجن للحى حين شغلوا بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكان الجاحظ يستنكر هذه الأخبار وأشباهها ، ويحكيها فى سخر بالغ ، وتهكم قارص . وتستطيع أن تقف على ذلك وأمثاله فى كتابه « الحيوان » فى كل موضع يفرغ فيه الرجل لبعض خرافات القوم ومزاعمهم . وقد تجده لا يعنى بتفنيد هذه المزاعم ولا يهتم بأدحاضها لأنها ظاهرة السخافة والبطلان ، ثم هو يعقب عليها بكل تهكم واستهزاء ، ويختمها بالعبارة القصيرة الموجزة تأتى عليها من القواعد . فمثلا تجده يحكى أقوال « صاحب المنطق » عن التزاوج والتلاقح بين بعض الحيوانات وبعضها ، فيسترسل الجاحظ فى الحكاية ، ثم ينتهى إلى التعليق عليها فيقول : « وقد سمعنا ماقال صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وماعندنا فى معرفة ما ادعى إلا هذا القول ! » ، ثم يخرج بعد ذلك إلى بعض خرافات القوم التى تتعلق بالحيوانات ، ثم يتهكم بها فيقول : « ولولا أنى أحببت أن تسمع نوعاً من الكلام ! ومبلغ الرأى ، لتحدث الله تعالى شكراً على السلامة ، لما ذكرت لك شيئاً من هذا الجنس . (١) »

فبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يتذرع الجاحظ فى كثير من نواحى فنه ؛ وبهذا الأسلوب التهكمى اللاذع كان يأخذ فى دعابته ومزحه فيبلغ الغاية من إرضاء الفن ، ويسمو إلى الذروة فى إمتاع القارىء . وعجيب أمر بعض أبناء العربية الذين يشدون من الأدب إذ تراهم يطيرون بفن الكاتب الفرنسى « فولتير » فيبالغون فى سخريته ، ويمتدحونه بلذعاته ، ويثنون على عبقريته فى التهكم ، وما أحسبهم يعرفون ذلك للجاحظ أو يعترفون به ، وأنهم لو علموا لتعجبوا من جهد كاتب العربية واقتداره فى ذلك ، ولراحوا يتلمسون تلك الناحية من فنه فيما له من كتب وآثار ، وهم لاشك واجدون متاعهم ولذتهم ، واقعون على أربهم ومبتغاهم ، ثم هم لاجرم سيعترفون له بما يعرفون « لفولتير » وأضرابه . وسنرى الجاحظ فى أحاديثهم وكتاباتهم منعوتا بالكاتب الساخر ، وما يجرى مجرى هذا النعت

وتعال إلى الرجل فى شىء من دعاباته الساخرة . فانك واجده على ماذكرنا ـ حلوا مستساغا ، قويا قادراً قد تمكنت فى طبعه ملكة السخر ، وتمت له موهبة التهكم ، فاذا أخذ بعض الأشخاص بالتصوير « التهكمى » فهو يقدم لك الصورة الدقيقة الرائعة التى تثير فى نفسك كل ما يمكن من معانى الضحك والفكاهة ، والسخر والتهكم ، والعطف والاشفاق ، والنفور والبغض . ألا تراه وهو يتندر على سهل بن هرون فى بخله وشحه فيقول : « قال دعبل الشاعر : أقمنا عند سهل فلم نبرح حتى كدنا نموت جوعا . فلما اضطررناه قال : ياغلام ويلك غدنا ! قال فأتانا بقصعة بها مرق فيه لحم ديك ، وليس قبلها ولا بعدها غيرها ، لا تحز فيه سكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطلع فى القصعة وقلب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلب جميع ما فى القصعة حتى فقد الرأس من الديك ، ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال : أين الرأس ؟ قال لم أظنك تأكله . قال : ولاى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه ، ولو لم أكره ماصنعت للطيرة والفأل لكرهته ! فان الرأس رئيس ، وفيه الحواس ، ومنه يصدح الديك ؛ ولولا صوته ما أريد ؛ وفيه قرنه الذى ينبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء فيقال . شراب كعين الديك ؛ ودماغه عجيب لوجع الكلية ؛ ولم أر عظما أهش تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من بلك أنك لا تأكله فان عندنا من يأكله . أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق . فانظر أين هو ؟ قال والله ما أدرى أين رميت به . قال : لكنى أدرى : إنك رميت به فى بطنك والله حسيبك (١) ،

وقد تكون هذه النادرة من مرويات دعبل حقاً ، وقد تكون من اختراع الجاحظ وابتداعه ، وإنما حمله على تلفيقها ماكان بينه وبين سهل من الشنآن ، ثم عزاها لدعبل ليخلص من تبعتها ولتكون أبلغ فى المؤاخذة . ومهما يكن من شىء فان الرجل هو الذى عرضها هذا العرض وجلاها فى هذا الثوب ، فجاءت على ماترى من السخر والتهكم والضحك والمرح ، والغمز واللمز . وانها لصورة دقيقة رائعة مهما بلغ كاتب من القدرة فى التصوير فما أحسبه سيبلغ فى وصف بخل سهل وتصوير شحه واقتاره ما بلغ الجاحظ فى هذه النادرة وهيهات !

(للبحث صلة) محمد فرهى عبد اللطيف

(١) الحيوان ج ١ ص ٨٥ وما بعدها

(١) الحيوان ج ٢